تقرير

خليل حرب
Khalilharb66@gmail.com

نذير حرب أوسع في ظلال "حلف" جديد؟ في معاني ليلة "الصفعة" الإيرانية

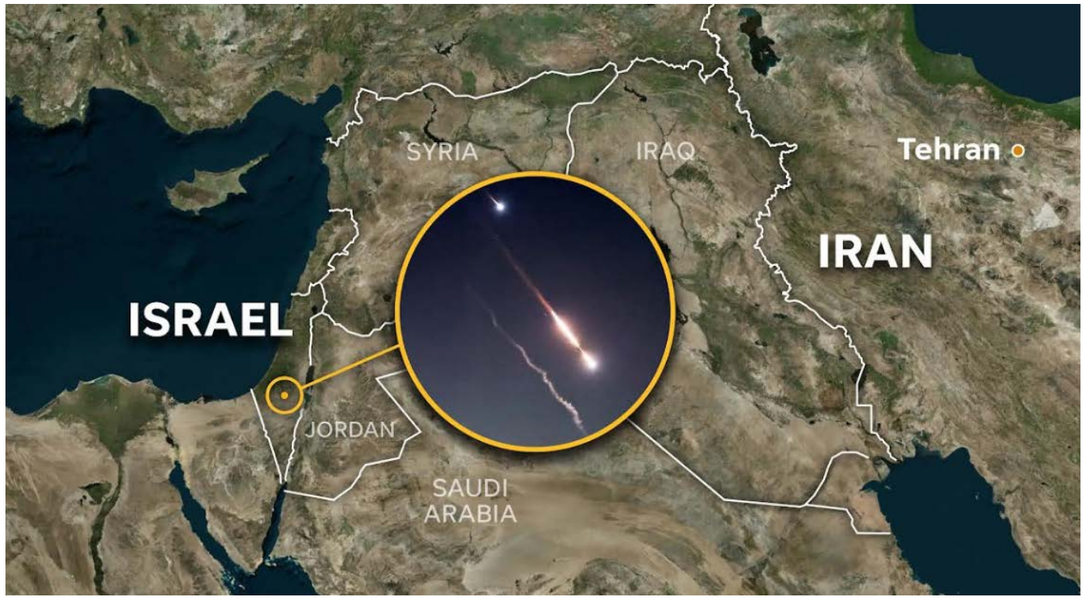

اذا كان من مشهد خطير في ما جرى ليل 13-14 نيسان 2024، الى جانب اهتزاز عمق احساس اسرائيل بامانها، فهو بلا شك الظهور الاول لما يمكن تسميته شبكة التصدي الدفاعي المنسقة اقليميا – دوليا لمواجهة ايران وحلفائها وقد خاضت معركتها الاولى، بشكل لم تعهده المنطقة في تاريخها

دعك من "حلف بغداد" القديم الذي اقيم لمواجهة الموجة القومية الناصرية، وكانت ايران - الشاه ركنا اساسيا فيه قبل ان يسقط بالضربة القاضية باطاحة النظام الملكي في بغداد. ودعك من "الغزو الثلاثي" لمصر (اسرائيل وبريطانيا وفرنسا) لكسر ثورتها ومنعها من حقها في سيطرتها على قناة السويس. ودعك من "تحالف السلام" (الذي ضم اسرائيل في صفوفه) والذي تشكل باسم السلام لكنه سقط سريعا بعد العدوان الاسرائيلي على لبنان العام 1996. ودعك من "تحالف الراغبين" من خارج تفويض الامم المتحدة الذي خاض معركة اسقاط النظام واحتلال العراق العام 2003، وفتح ابواب الخراب على المنطقة.

نحن هنا امام "تحالف" بشكل جديد كنا نعتقد انه اخذ بالتبلور، فاذا به حقيقة واقعية تخوض معركة التصدي للصواريخ والطائرات المسيرة الايرانية لاسقاطها قبل وصولها الى اسرائيل. هذه حرب علنية باسم حماية اسرائيل لم تحدث من قبل بهذا الشكل والحجم والاطراف وبقوة السلاح، كما لو ان ما يجري هو الولادة الفعلية لفكرة "الناتو الاقليمي" التي جرى الترويج لها منذ سنوات، وظن كثيرون انها مجرد فكرة طوتها ادراج النسيان.

اذا كان هجوم "طوفان الاقصى" في 7 تشرين الاول 2023 اصاب اسرائيل في صميم كيانها، فان مشهد 13-14 نيسان 2024 فاقم من احساس الاسرائيليين بانهم مهما فعلوا، بما في ذلك الابادة المرتكبة في غزة منذ 7 شهور، لن يجلب لهم لا سلاما ولا استقرارا. 90% من الصواريخ والطائرات المسيرة التي تباهى الاميركيون والاسرائيليون بانهم اسقطوها في تلك الليلة قبل وصولها الى اسرائيل، لها دلالتها الكبيرة في السياسة والعسكر والامن والمشهد الاقليمي باكمله. الولايات المتحدة التي كانت عادة مثلما فعلت في حرب 1973 او حرب 2006 في لبنان، تفتح الجسور الجوية للامداد العسكري لاسرائيل، تنغمس هذه المرة في معركة مباشرة حماية لها، بل تفرض من خلال وجودها العسكري الواسع في القواعد المنتشرة في زوايا المنطقة باكملها على الدول المستضيفة لها، بما في ذلك بعض الدول العربية، ان تخوض المعركة الى جانبها ولو من باب "التنسيق والرصد"، حماية اسرائيل.

لكن الدلالة المهمة لهذا المشهد ان اسرائيل كـ"قاعدة غربية متقدمة في قلب الشرق الاوسط" كما وصفها الكثير من السياسيين والمؤرخين في ما واجهته في الليلة الايرانية الانتقامية، يفضح انها برغم كل ما ضخ فيها من اموال وسلاح وتكنولوجيا وغطاء سياسي على مدى اكثر من 7 عقود، بدت عاجزة عن الوقوف بمفردها للدفاع عن نفسها.

"الاستثمار" في اسرائيل كفكرة ومشروع، منذ اربعينات القرن الماضي، بدا للمرة الاولى في هذا الوضوح كرهان استعماري، لكنه بات يتطلب الان بالتاكيد اعادة قراءة غربية – وعربية ايضا - واعادة حسابات ليس فقط لما مضى من التاريخ، وانما لما سيأتي به المستقبل فيما يتعلق بالصراع الاقليمي وقضية فلسطين. يقول المشهد الناشئ الان ان ما يوصف بـ"محور المقاومة" في المنطقة، بات الان امام تحالف يبحث عن اسم وهوية واضحة. "الناتو الاقليمي"، "الناتو العربي-الاسرائيلي"، "تحالف التطبيع"، "تحالف المعتدلين".

وربما لا يبدو الاسم مهما الان، لكن الاكثر اهمية ان الولايات المتحدة التي ظلت تقول منذ اكثر من 7 شهور انها تعمل على احتواء الحرب الاسرائيلية على غزة لمنعها من التمدد والانتشار، اصبحت الان مثابة حرب اقليمية واضحة المعالم، يقول موقع "انترسبت" الاميركي ان 16 دولة باتت منخرطة فيها الان، وربما تتوسع.

كما ان المخاوف الاكبر تتعلق بان فكرة انخراط الولايات المتحدة بهذا الشكل الفج، في تفاصيل المواجهة، برغم الرسائل التي يعتقد انها تبادلتها مع طهران في ما بعد الهجوم على القنصلية الايرانية في حي المزة الدمشقي، من اجل محاولة اقناع طهران بـ"ضبط" حجم انتقامها، ثم محاولة "ضبط" الرد الاسرائيلي، لا يبدد كل ذلك احتمالات ان المنطقة باكملها قد تنزلق الى اتون مواجهة لا يعرف احد تداعياتها.

لكن للدلالة على تداعيات بعض ما جرى في 13-14 نيسان على اسرائيل، ان زعيم المعارضة الاسرائيلية يائير لابيد مثلا يقول بعد 7 شهور من الحرب الاسرائيلية المدمرة على غزة ان "كل ما تبقى من سيد الامن (أي بنيامين نتنياهو) هو قرى من الخراب من بئيري (مستوطنة في الجنوب) حتى كريات شمونة (في الشمال)، وفقدان كامل للردع الاسرائيلي"، مطالبا باجراء انتخابات فورية قبل اغراق اسرائيل بالخراب.

كما تنقل صحيفة "يديعوت احرونوت" عن مصادر مطلعة على طبيعة النقاشات السرية الجارية في

قواعد اشتباك جديدة تتبلور وحرب علنية باسم حماية اسرائيل

صواريخ ايرانية في عرض عسكري

اسرائيل فيما بعد الهجوم الايراني، قولها انهم "لو قاموا بتصوير هذه النقاشات وبثها على اليوتيوب لكان هناك اليوم 4 ملايين شخص في اسرائيل يحاولون ايجاد طريقة للهروب من هنا". بكل الاحوال، فان قراءة وتحليل ما جرى، وهي ستظل تتوالى فترة طويلة خصوصا في حال التهب المشهد الاقليمي على وقع الدم الفلسطيني المسفوك في غزة والذي بلغت ضحاياه حتى الان نحو 120 الف فلسطيني بين قتيل وجريح، ودمار لحق باكثر من 50% من المباني والمنشات في القطاع الفلسطيني المحاصر، فيما لم تشهد حرب الابادة هذه اي تحرك ذي قيمة، لوقفها، لا في نيويورك، ولا واشنطن، ولا في العواصم العربية المعنية مباشرة.

لكن في الامكان حتى الان، صياغة معاني ما جرى في ليلة الانتقام الايراني، وهي كثيرة، ومن بينها ان اسرائيل التي تتباهى منذ عقود بقدرتها على ضرب واحتلال العديد من العواصم العربية المحيطة بها، بدت غير قادرة على حماية نفسها بنفسها من هجوم من ايران وحدها، كل ملامحه تؤكد انه كان "محدودا" (حوالى 300 طائرة مسيرة وصاروخ)، حيث يدرك الخبراء ان في مقدور طهران اطلاق الاف الطائرات المسيرة وشن صليات صاروخية اكبر كثافة، بما في ذلك اللجوء الى الصواريخ الفرط صوتية التي باتت تمتلكها، الى جانب التنسيق مع حلفائها في المنطقة لمشاركتها مباشرة في الهجوم، ما كان سيلحق ضررا اكبر بالمواقع الاسرائيلية المستهدفة فعليا.

بمعنى اخر، تخلت ايران عن مبدأ "الصبر الاستراتيجي" الذي التزمته حتى الان في مواجهتها وصراعها غير المباشر مع اسرائيل، بما في ذلك بعد مقتل نحو 20 من قياداتها في الحرس الثوري الايراني في سوريا وحدها، خلال الشهور السبعة الماضية، وتعرضها من قبل لعمليات اغتيال لعلمائها وقادتها العسكريين وتفجيرات في مدنها ومنشاتها المهمة، وتخريب في بعض مواقعها النووية.

في المقابل، من الواضح ان اسرائيل في اسوأ سيناريوهاتها، لم تتوقع اقدام ايران على مثل هذا الهجوم، حيث اعتادت تل ابيب التباهي بانه "سياسة الردع" التي تعتمدها منذ عقود تساهم في ترسيخ الخوف منها اقليميا. الهجوم الايراني، بهذا المعنى، خرق الحسابات الاسرائيلية السائدة. كما بدت اسرائيل بشكل ما ملزمة بنوع من ◄

من احد شوارع طهران

"القيود" الاميركية. فقد منحتها ادارة الرئيس جو بايدن الكثير خلال شهور العدوان على غزة، لكنها ايضا فرضت عليها بعض الحسابات التي يجب ان تؤخذ في الاعتبار، بما في ذلك مصالح الاميركيين في هندسة وضبط شكل المواجهة ومستواها. ووضع ذلك نتنياهو بشكل اكبر تحت وطاة ابتزاز شركائه الاكثر تطرفا في الحكومة، للتصعيد فلسطينيا واقليميا، واضطر في احيان كثيرة اما لمسايرتهم او مقاومة ضغوطهم عليه.

ومن المهم الاشارة ايضا الى ان الاردن اصبح في وضع شديد الحساسية، بعدما ساهم سلاح الجو الاردني في التصدي للصواريخ والمسيرات الايرانية في اطار ما وصفه بحقه في منع انتهاك اجوائه او المساس بسلامة مواطنيه، لكن هذا التطور جاء ايضا فيما تتوسع مساحة الغضب بين الاردنيين وهو يرون اخوتهم الفلسطينيين يتعرضون للابادة، بينما في مقدور حكومة عمان القيام بما هو اكثر من مجرد التنديد بالعدوان الاسرائيلي. ويخشى المراقبون من احتمال ان ينزلق الاردن في اتون النيران الاقليمية في حال تواصل الاشتباك الايراني - الاسرائيلي عن بعد، او ازداد غضب الشارع الاردني من المذبحة في غزة، وصعدت اسرائيل ايضا من سياستها خنق الفلسطينيين في الضفة الغربية، ودفعهم الى النزوح.

ومن الطبيعي ان اسرائيل حاولت في ما بعد الليلة الايرانية السوداء ان تظهر للعالم ان معركتها الحقيقة مع ايران، وليس ما تفعله في غزة. وهي وجدت بذلك اذانا صاغية في واشنطن وباريس ولندن وبرلين. ومن غير الواضح ما اذا كان "التضليل" الاسرائيلي سيظل قادرا على فرض نفسه في حال تفاقم الصراع الاقليمي نحو مواجهات متقطعة ومستمرة او نحو مواجهة مفتوحة، اذ ظهر للعالم في الشهور السبعة الماضية ان السردية التي تطرحها اسرائيل منذ سبعة عقود، لم تعد تلق الكثير من المصداقية في انحاء العالم.

وبينما تساءل كثيرون، او شككوا في امكان ان تقوم ايران بالرد عسكريا وبشكل مباشر وبنفسها، على اسرائيل بسبب الغارة على القنصلية الايرانية في دمشق، فان التدقيق في معاني ما فعلته اسرائيل يؤكد ان طهران لم يكن في امكانها ان تبتلع غضبها. ومن بين ذلك، اغتيال العميد محمد رضا زاهدي في 1 نيسان، والذي سبقه اغتيال العميد سيد رضي موسوي في 25 كانون الاول الماضي، واغتيال العميد حجة الله اميدوار الذي كان يتولّى مسؤولية استخبارات "فيلق القدس" في سوريا. لكن مع اغتيال العميد زاهدي طفح الكيل مع الايرانيين بالنظر الى دوره المحوري، ولحقيقة ان المبنى يعتبر بحسب الاعراف الديبلوماسية مثابة ارض ايرانية، كما ان مرشد الجمهورية الايرانية السيد علي خامنئي توعد في اليوم التالي لعملية الاغتيال بان طهران ستنتقم "على ايدي رجالنا"، ما عنى ان الايرانيين هم من سيتولون الانتقام بانفسهم.

بغض النظر عن النقاش الدائر عما اذا كان الرد الايراني كافيا، او انه سيحدث تغييرا في سلوك اسرائيل في المنطقة، لكن المؤكد ان الهجوم الايراني سيفرض على الاسرائيليين التفكير اكثر من مرة قبل المبادرة الى اغتيال او الاعتداء على الجوار، ذلك ان جانبا من تمادي نتنياهو في الشهور السبعة الماضية، وحتى ما قبلها، مرده ان اي جهة او دولة لم تعمد الى محاولة "ردعه" او "ضبطه". "الصفعة الايرانية" ربما تكون قد فتحت بابا للاستدراك، ومراجعة الاعتقاد الاسرائيلي بان طهران لن تتجرأ على الرد، خصوصا وان اسرائيل حملت ذريعة "طوفان الاقصى" لتضرب يمنة وشمالا، وتلجا الى سياسة الابادة في غزة.

ولا بد ان ايران شاهدت بام العين كيف ان الغارة على مبناها الدمشقي، لم تلق اي ادانة من مجلس الامن برغم مرور نحو اسبوعين على الضربة الاسرائيلية، وهو ما جعل الايرانيين يعتقدون ان ذلك سيشكل ضوءا اخضر لاسرائيل للتمادي في المرحلة اللاحقة، بما في ذلك ضرب بعثاتها الديبلوماسية في المنطقة، او حتى الاعتداء الاسرائيلي المباشر على الاراضي الايرانية نفسها.

"الصفعة الايرانية"، مهما بدت محدودة، اثارت الشكوك في معتقدات التفوق الاسرائيلي، وساهمت في اظهار حجم الخسارة بين الاسرائيليين مثلما فعل "طوفان الاقصى" برغم سياسة الابادة التي لجأت اليها اسرائيل. الاسرائيليون ادركوا في تلك الليلة ان كل الوعود التي يطلقها قادة الكيان في العقود والسنوات الماضية، بدت فارغة من مضمونها، عندما توجهت 300 طائرة مسيرة وصاروخ من ايران نحوهم، فاذا بالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وانظمة رصد جوية وانذار وتنسيق اقليمية تسارع الى نجدتهم.

ايران عززت اقوال تهديداتها بالافعال. ومعادلات الاشتباك بينها وبين اسرائيل، والتي كانت سائدة في العقود الاربعة الماضية، تعاد صياغتها الان بشكل مختلف، وتجري محاولات لاعادة رسمها ولو بالنيران المباشرة. لكن المعادلة الجديدة، ستأخذ في الاعتبار بالتاكيد ما جرى في ليلة الانتقام الايراني ودروسها. هناك قناعة واسعة بين الاسرائيلين برغم اعلانات التصدي لـ99% من الهجوم الايراني، فان هذه المواجهة الاولى بين الصواريخ الإيرانية وانظمة الدفاع الجوي الإسرائيلية و"الحليفة" لها، تمثل الاختبار الحقيقي الاول لصواريخ ايران والتي نجح بعضها في تخطي ما وصف بانه اكبر درع صاروخ دفاعي في العالم والمكون من شبكة من الدفاعات لجيوش عدة، وهو ما يعني انه في حال شنت ايران هجوما متتاليا ومكثفا من الصواريخ والمسيرات المفخخة والهجومية، فان اسرائيل لن يتكون قادرة على النجاة منها بالكامل هذه المرة.